الهُويّة والطّفولة في سيرةِ إبراهيم الكَوْنِي (عَدُوسُ السُّرَى: رُوحُ أُممٍ في نَزيفِ ذاكرة)

Identity and Childhood in Ibrahim Al-koni’s autobiography (The night’s wanderer: Nations’ spirit in bleeding memory)

حسام عبدالله يحيى راجحي

باحث دكتوراه في قسم اللغة العربية وآدابها، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، الرياض

البريد الإلكتروني:hayrajhi@gmail.com

المستخلص:

لقد زاحم الأدبُ المجالات المعرفية ومباحث العلوم الإنسانية في تناوله مسألة الهُويّة، إذ تُعد السيرة الذاتية إحدى أبرز الأنواع الأدبية قدرة على تمثيل الذات الإنسانية، وأكثرها استيعابًا للهُويّة؛ بوصفها سمة تحدد ملامح مجموعة بشريّة ما، أو فرد من أفرادها، أو كيان من تكوينها.

ومن السير الذاتية التي شكلت الهُويّة فيها الثيمة الرئيسة، وعبّرت عنها بصورة لافتة، سيرة الأديب الليبي إبراهيم الكوني: (عَدُوسُ السُّرى: روحُ أُممٍ في نزيف ذاكرة)، التي صدرت في أربعة أجزاء، وجاءت في ألفي صفحة تقريبًا. وهي سيرة ذاتية بحث الكوني فيها، كما يتبيّن من عنوانها، عن هُويّته وموقعه في العالم؛ ذلك أن العدوس أو الارتحال من أبرز التقنيات التي يستعين بها صاحب التجربة المستكشف لذاته، والباحث عن هُويّته.

ويهدف هذا البحث إلى دراسة موضوع سائد في الكتابات الذاتية، ومرحلة مهمة من مراحل حياة الكاتب هي مرحلة الطّفولة. ويأتي الاهتمام بهذه المرحلة بوصفها المحطة العمريّة الأولى التي بدأ منها الكوني قصة حياته، والبنية الأساسية في تشكيل وعيه، وتفسير سلوكه، وبناء هُويّته.

الكلمات المفتاحية: الهُويّة، الطّفولة، السّيرة، الكوني، عدوس السّرى.

Identity and Childhood in Ibrahim Al-koni's autobiography (The night's wanderer: Nations' spirit in bleeding memory)

Hussam Abdullah Yahya Rajhi

PhD Researcher in the Department of Arabic Language and Literature, College of Humanities and Social Sciences, King Saud University, Kingdom of Saudi Arabia, Riyadh

Email: hayrajhi@gmail.com

Abstract:

Literature has vied with knowledge domains and humanities disciplines in addressing the issue of identity. Autobiography is considered one of the most prominent literary genres capable of representing the human self and comprehending the concept of identity seen as a characteristic that defines the features of a certain human group, an individual within it, or an entity stemming from it.

Among autobiographies in which identity has become the central theme and was strikingly expressed is the autobiography of the Libyan writer Ibrahim Al-Koni:″The night's wanderer: Nations' spirit in bleeding memory″, published in four volumes comprising approximately two thousand pages. As indicated by its title, Al-Koni uses the concept of Adus (wandering) as a central technique in exploring his self and searching for his identity.

This study aims to examine a prevalent theme in autobiographical writing—an essential stage in the writer's life: **childhood**. This phase is particularly significant as it represents the initial station from which Al-Koni begins his life story and serves as the foundational structure for shaping his consciousness, interpreting his behavior, and constructing his identity.

Keywords: Identity, Childhood, Autobiography, Al-Koni, *Adus al-Sura.*

المقدمة:

تُعدّ الهوية من أبرز الموضوعات طرحًا وتناولًا في مختلف العلوم والمجالات الإنسانيّة، ففي ظل تقلبات الأوضاع العالمية، اكتسبت مسألة الهوية أهمية بالغة في حياة الإنسان المعاصر، وأصبحت ضرورة مكّنت الإنسان من تحديد سلوكه، وفهم ذاته، وحماية نفسه من الأخطار التي تهدد كيانه.

ولما كانت الهوية في أبسط تعريفاتها تعني سمات الأفراد وملامح الجماعات وخصوصيات الثقافات، فقد وجد الأدب فيها، خصوصًا السيرة الذاتية، منطلقًا للبوح والاعتراف؛ فحضور الذات في هذا النوع من الكتابة يأتي من خلال احتكاكها بالأحداث التي جرت في مسيرتها، مما يسمح لها بالتعبير عن نفسها.

لقد بدا موضوع الهوية همّا وهاجسًا في أعمال الكوني عامة، وفي سيرته الذاتية بصفة خاصة؛ ولعل ذلك يعود إلى الصراعات التي احتدمت بين المجتمعات، فسؤال الهويّة يُطرح عادة في المجتمعات المتأزمة التي تفتقد الأمان والاستقرار.

ومن الملحوظ أن الكوني في سيرته الذاتية سعى إلى استدعاء مرحلة الطفولة، وطرح سؤال الهوية عليها لأهمية تلك المرحلة؛ فالإنسان إذا أراد أن يكتشف هويته، فعليه أولًا أن يهتم بمراحل بناء الذات، والطفولة إحدى أهم المراحل التي يستطيع الفرد من خلالها تشكيل مفاهيمه وتصوّراته.

أما منهج البحث، فقد اتخذ الباحث من النقد الثقافي منهجًا عامًا، فهو منهج ينظر إلى النص الأدبي بوصفه حادثة ثقافية وليس نصًا أدبيًّا فحسب، حيث يهدف إلى فحص وتقييم الإنتاج الثقافي، والكشف عن حمولات الأنساق المتحكمة في طرق التفكير وبناء الهويّات.

خطة البحث:

١- **المقدمة:** وفيها فكرة البحث، وأسباب اختياره، وأهميته، ومنهجه.

٢- **التمهيد:** وفيه بيان علاقة السيرة الذاتية بالهوية والطفولة، والتعريف بالكاتب، ومدونة الدراسة.

٣-**محاور البحث:**

أولًا: الوعي بالهوية

ثانيًا: القلق الوجودي

ثالثًا: النداء والواجب

رابعًا: البحث عن الهوية

٤- **الخاتمة:** وفيها أبرز النتائج التي توصّل إليها البحث

٥- **المصادر والمراجع:** وفيها مدونة الدراسة، والمراجع التي استند إليها البحث.

التمهيد:

قد لا يتبيّن الوعي بالهوية والتعبير عنها في الأعمال الإبداعية كما في السيرة الذاتية، فالسيرة الذاتية تُعد من أبرز الأنواع الأدبية استيعابًا والتصاقًا بالذات الإنسانية؛ بوصفها تسجيلًا مباشرًا يعتمد على التصريح، بخلاف الأنواع الأدبية الأخرى التي تعتمد على الترميز والاستعارة. فبينما تَمنح الأعمال التخييلية مساحة أكبر للتعبير عن الذات، تُتيح السيرة الذاتية إمكانية تقصي الذات دون وسيط رمزي يضفي على النص أبعادًا مبهمة.

ولعل من أبرز الأسئلة المرهقة التي تلح على الكتّاب في افتتاحيات كتاباتهم السيرذاتية ماله علاقة بالبدايات، إذ تتنوع البدايات التي ينطلق منها الكتّاب للتعبير عن ذواتهم. فهناك من يختار بداية الميلاد البيولوجي، أي لحظة الولادة من الناحية الزمانية والمكانية، فيبدأ بذكر المكان والزمان الذي وُلد فيه، ويبيّن الوضع الاجتماعي لعائلته، ويمهّد للأحداث التي أحاطت بولادته ونشأته. ومنهم من ينطلق من ميلاد الذاكرة، أي لحظة الوعي التي يدرك فيها ذاته والعالم المحيط به، ويستعيد فيها مشاعره وأفكاره وانطباعاته عن الحياة. بينما يفضّل آخرون الميلاد النفسي، فيبدؤون بسرد الذكريات المؤلمة، والمواقف التي أثّرت في تشكيل هوياتهم.

تلك البدايات تبرز عادة في مرحلة الطفولة، ولذلك تتجلى أهمية تلك المرحلة عند كثير من كتّاب السيرة الذاتية؛ إذ يرون فيها انعكاسًا للرؤية التي يتبنونها عن ذواتهم، ونقطة انطلاق تتحدد بها ملامح هوياتهم.

ولعله من المفيد قبل استعراض محاور البحث، وتناولها بالدراسة والتحليل، أن نمهد بنبذة يسيرة نعرّف من خلالها بالمؤلف، والمدونة السيرذاتية:

ولد إبراهيم الكوني في ليبيا عام ١٩٤٨م، بوادي آوال الواقع في صحراء تينغرت، المعروفة بالحمادة الحمراء، لأسرة تنتمي إلى قبيلة الطوارق. ففي تلك الصحراء قضى الكوني طفولته المبكرة، لينزح في عام ١٩٥٩م إلى الواحات المجاورة لتلقي تعليمه: واحة غدامس، ثم واحة آدري، ثم عاصمة الواحات سبها، التي نال فيها شهادتي الابتدائية والإعدادية.

في خريف عام ١٩٧٠م رحل الكوني من ليبيا إلى الاتحاد السوفييتي، وواصل مشواره التعليمي هناك، حيث تحصّل على الشهادة الثانوية، والتحق بمعهد غوركي في خريف عام ١٩٧٢م، متخصصًا في النثر الأدبي، وفيه أنهى مسيرته التعليمية حاملًا درجة الماجستير في العلوم الأدبية والنقدية ربيع عام ١٩٧٧م.

ويعد الكوني أحد أبرز الكتاب المعاصرين غزارة في الإنتاج الأدبي، فتاريخه الطويل في الكتابة والتأليف أثرى المكتبة العربية والعالمية، ومدّها بمدونة ضخمة وصلت إلى تسعين مؤلفًا، تنوعت بين القصص والروايات والنصوص والموسوعات والكتب النظرية. ويبدو أن سعة اطلاعه، وكثرة قراءاته، وترحاله الدائم، وإجادته لبعض اللغات: كالعربية والروسية والإنجليزية والبولندية والألمانية والإسبانية، من الأسباب التي أسهمت في غزارة إنتاجه وتميّزه.

وللكوني اسهامات كثيرة ومشاركات متنوعة في المشهد الأدبي والثقافي، تراوحت بين أعمال أدبية وفكرية، ومقالات ودراسات منشورة في الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية، ومحاضرات وندوات ومؤتمرات علمية، وأعمال ومناصب شغلها في مسيرته الوظيفية؛ وهو ما مكّنه من أن يثبّت اسمه في المشهد العربي والعالمي، وينال بموجبها على عدد من التكريمات والجوائز العربية والدولية.

أمّا سيرته الذاتية (عَدوس السُّرى: روح أمم في نزيف ذاكرة) فقد صدرت في أربعة أجزاء عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، وجاءت في ألفي صفحة تقريبًا، بدأها في عام ٢٠١٢م، وأنجزها في عام ٢٠١٦م. وهي سيرة ذاتية كشف الكوني فيها عن عدْوه الطويل في الحياة، وسيْره الشاق بين دهاليزها وظلماتها المحفوفة بالمخاطر، وتناول أحداث حياته بآمالها وآلامها، وأثراها بتأملاته الذاتية ورؤاه الفكرية، ودون فيها ما اكتسبه من تجارب وخبرات عبر احتكاكه بحياة الأمم المختلفة وثقافاتها المتنوعة.

محاور البحث:

أولًا: الوعي بالهوية

تلعب الطفولة دورًا محوريًا في تكوين وعي الأفراد وبناء هوياتهم، فما يكتسبه الطفل من معارف، وما يصقله من تجارب، وما يكتنزه من ذكرى في تلك المرحلة، يظل ملازمًا له بقية حياته، وقد يصعب التخلص من تأثيراته؛ ذلك "أن تأثيرات مرحلة الطفولة ممتدة لما بعد هذه المرحلة ومتشبعة وتسهم بتأثيرها على المراحل التالية بها"[1]. فقيمة مرحلة الطفولة تبرز في كونها الأساس الذي ترتكز عليه المعرفة والوعي، إذ يكتسب الطفل في تلك المرحلة عبر تجاربه وتفاعله مع محيطه أنماطًا من التفكير والسلوك والمشاعر تترسّخ في شخصيته، وتمتد معه إلى مراحل لاحقة، كمرحلة النضج والشيخوخة، مما يجعل رصد تلك التأثيرات خطوة مهمة لفهم الهوية وتطوّرها.

إن الوعي بالهوية في مرحلة الطفولة، خصوصًا في سنواتها الأولى، غالبًا ما يكون ضبابيًا وغير مدرك، إذ يحاول الطفل في تلك المرحلة إثبات هويته عبر محاكاته هوية مجتمعه الذي يعيش فيه، والتسليم بكل ما ينقل إليه من عادات وتقاليد وطباع، حيث يتبنّى الطفل ثقافة مجتمعه ويسعى للانتماء إليها فطريًا دون أدنى تفكير نقدي أو تأويل؛ وذلك ما قام به الكوني في طفولته محاولًا تأصيل انتمائه لهوية الطوارق: "جاء اليوم الذي كان عليّ فيه أن أبرهن على انتمائي إلى هوية أهل الصحراء بالخضوع لتلك التجربة التي خاضها الأنبياء: رعي الشاة"[2]. فالهوية في مرحلة الطفولة المبكرة تُكتسب بناء على مرجعية الجماعة التي ينشأ الطفل ضمنها، وتُختزل في الامتثال والتقليد أكثر من الاختيار الواعي الذي تمتاز به في مراحلها اللاحقة.

وهو وعي قاصر بأسس الهوية ومبادئها، وما تخفيه من معان قد لا تتكشف دون تأويل وتفكيك، إذ تغيب رمزية بعض الممارسات المجتمعية عن الطفل، وإن بدت في ظاهرها مجرد تقليد أو نشاط يومي، فلا تُدرك أبعادها الفلسفية إلا في مراحل تالية من النضج؛ ذلك أن "فيما وراء الغطاء الظاهري للأشياء ثمة حقيقة مجردة، من الضروري فكها من أجل تحديدها، وبعدئذ التعبير عنها"[3]. فمهنة الرعي كما تبيّن للكوني في مراحل لاحقة ليست إلا استعارة وذريعة لهوية الطّوارق الفعلية، وغطاء للهوية الصحراوية القائمة على مبدأ الحرية والترحال: "لا نستطيع أن نقول أن هذا المجتمع الذي يحترف السير هو مجتمع يمتهن الرعي في سفره الأبدي، لأن حرفته الحقيقية هي الترحال. أما الرعي فليس إلا مبرر لمواصلة هذا الترحال، وليس له غاية"[4]. وهو ما يؤكد أهمية التأويل لفهم الدلالات المختبئة خلف الممارسات المجتمعية، وقصور الوعي في مرحلة الطفولة ومحدوديته أمام تفكيك تلك الأبعاد الرمزية.

وبتقدم الطفل في العمر يتطور وعيه، وتزداد حساسيته تجاه الأشياء المحيطة به، وتبدأ حواسه بالتقاط الإشارات وتأمل الظواهر والدهشة منها، "إنها طفولة الإنسان الذي ينتبه ويتساءل بمرح ويذهب

---

(1) فوزي، منير، صورة الطفل في الرواية المصرية، ط١ (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٧م) ص٢٥٠.

(2) الكوني، إبراهيم، عدوس السرى، ج١، ص١٦.

(3) فانين، لورانس، انظر وفكّر: من العين إلى الروح، ترجمة: محمد الزين، ط١ (وهران: ابن النديم للنشر والتوزيع، ٢٠٢٢م) ص٤٥-٤٦.

(4) الكوني، إبراهيم، عدوس السرى: روح أمم في نزيف ذاكرة، ج٣، ط١ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠١٤م) ص١٧٣.

إلى حد التساؤل حول السؤال نفسه. فهو يرى ويلمس ويستنشق العالم كما لو كان حديقة اكتشافات"[1]. وليس بالضرورة أن يصل كل إنسان إلى ذلك المستوى من الوعي في المرحلة العمرية نفسها، فطبيعة المكان تلعب دورًا مؤثرًا في الوصول إلى الدهشة والتفاعل مع الظواهر، واستفزاز الفضول على التفكير والتأمل. فالصحراء أحد أبرز الأمكنة التي تهب ذلك الشعور؛ حيث "ترتبط الصحراء بجملة من الخصائص الفريدة التي لا تكاد تتوفر في أي مكان جغرافي آخر على سطح الأرض؛ كالاتساع الهائل لمدى الرؤية، وجماليات التدفق الضوئي، والقدرة على الجمع بين المتناقضات والثنائيات، كالحركة والسكون، والغموض والوضوح، والجمال والرهبة، والأمن والخوف"[2]. فهي بخصائصها الاستثنائية تستفز الوعي، وتحفّز ساكنها على التساؤل والتأمل، وتدفعه إلى البحث والاكتشاف المستمر؛ وبذلك يصبح المكان عنصرًا محفّزًا في تكوين الوعي المبكر وتطوّره.

لقد كان مشهد الصحراء المهيب الذي افتتح به الكوني سيرته الذاتية، بمداها المفتوح اللانهائي ومتاهتها الخرافية وطبيعتها القاسية، لغزًا معقدًا جعل الكوني، ابن العاشرة، يستغرق في تأمله بدهشة. ذلك المشهد الذي ترك انطباعه على وجدان الطفل بحيث لازمه بقية حياته، وأصبح مكونًا رئيسًا لهويته: "الانطباع الذي خلّفه في وجداني ذلك المشهد اخترقني عميقًا كوحي مجهول، ولم أتخيّل يومها أنه سيصير سر تكويني الروحي؛ مشهد شحيح، مشهد لم يكن ليعني شيئًا على الإطلاق"[3]. ولما كان وعي الكوني في تلك المرحلة المبكرة قد عجز عن تأويل المشهد واستنطاق معناه، فإن لا وعيه لم يفلت من تأثيرات المشهد على شخصيته؛ بحيث أحيا لديه قلقه الوجودي، وأسهم في تكوين هويته، هوية العدوس الضائع المستكشف: "يعجز وعي ابن العاشرة أن يدركها وعيًا، ولكنه يستطيع أن يحياها حدسًا. هذا الحدس الذي ما لبث أن تحوّل، في وجدان إنسان مازال يتماهى مع الطبيعة، وسوسة، بل هاجسًا. فأبدية البادية توقظ إحساسًا قاسيًا بالضّياع، ولون الظلمة التي تهيمن على الامتداد الخالد تحيي لهفةً للاستكشاف"[4]. وهي تجربة تؤكد أهمية الأمكنة في تشكيل الوعي؛ حيث يرتقي المكان من مجرد بيئة جغرافية إلى مصدر إلهام يترك أثره في بنية الهوية.

ولتجارب الطفولة العصيبة دور مهم في تكوين الهوية، إذ لا يتوقف أثرها عند اللحظة التي تقع فيها، بل يتواصل إلى مراحل لاحقة، وقد يصعب التخلص من تبعاتها. فحينما يمرّ الطفل بتجربة قاسية، فإنّها غالبًا ما تترك أثرها في وجدانه؛ ولعل ذلك يعود إلى أننا "جميعًا نحمل من طفولتنا ذكريات لا حصر لها، بعضها ينطوي على قدر من المرارة والأسى، وينطوي بعضها على مقادير أخرى من البهجة والفرح. ولكن صورة المرارة هي الأقدر على البقاء، وعلى ملاحقتنا في أيامنا التالية"[5]. فتجربة التيه التي مر بها الكوني في الصحراء، أثناء رعيه الغنم في الخامسة من عمره، شكّلت حدثًا محوريًا تغيّرت حياته على إثرها، ففي تلك التجربة تعمّق لديه الإحساس بالضياع، وعقد علاقة وثيقة مع هاجس الموت؛ فالتيه منحه نوعًا من اليقظة المبكرة تجاه حقيقة العالم المليء بالمفاجآت، والمعادي بطبيعته للإنسان: "تيهٌ كان من شأنه أن يعمّق الإحساس بالضياع في وجدان ابن الخامسة الهش [...] لم أتخيّل

(1) فانين، لورانس، لماذا نتفلسف؟: سُبُل الحُريّة، ترجمة: محمد الزين، ط١ (وهران: ابن النديم للنشر والتوزيع، ٢٠٢م) ص٤١.
(2) البليهد، حمد، جماليات المكان في الرواية السعودية، ط١ (الدمام: دار الكفاح للنشر والتوزيع، ١٤٢٨ه) ص١٠٩.
(3) الكوني، إبراهيم، عدوس السرى، ج١، ص١٣.
(4) الكوني، إبراهيم، عدوس السرى، ج١، ص١٤.
(5) صالح، صلاح، سرديات الرواية العربية المعاصرة، ط١ (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣م) ص١٩٩.

بالطبع أن عَدُوسَ السُّرى الذي تلقّفني في تجربة ذلك التاريخ البعيد سيكون المصير الذي سيتلبّسُني طوال تلك الرحلة التي لم تكُن سيرة بقدر ما كانت تخبّطًا موجعًا في ظلمات ليلٍ بهيمٍ، تُكشكش في دروبه الأفاعي"[1]. وبهذا مهّدت له تجربة التيه حقيقة العالم، فالطفل بات يدرك هشاشة الحياة وحدود الأمان فيها، بحيث ترسخ لديه وعيًا أن قسوة العالم جزء من نظام الحياة، وأصبح أكثر قدرة على فهم نفسه ومحيطه مع مرور الزمن.

وهي تجربة أقل ما يقال عنها إنها أماتت فيه هوية وأحيت فيه هوية أخرى، أماتت فيه هوية الطفل البريء الذي لم يكتمل وعيه بذاته وبموقعه من حقيقة العالم، وأحيت فيه هوية إنسان الصحراء المتماهي مع الطبيعة، التي تتسم بالحذر من جهة، وتمتلك القدرة على حماية نفسها من جهة أخرى، هوية عدوس السرى التي لا تتوقف عن السير ولا تخشى الظلمات والموت: "لقد شهدتُ ميلادي في تلك الليلة، لأن الميلاد على ما يبدو ليس أن ننبثق من بطون الأمّهات، ولكن أن نعود إلى بطن أم الأمّهات. أن نختفي في جوف الطبيعة، لكي نولد حقًا في الحقيقة [...] وأنا منذ تلك الليلة صرت طبيعة. لم أصبح جزءًا من الطبيعة، ولكنني الطبيعة! ألهذه العلة لم أستشعر عطشًا ولا جوعًا؟"[2].

كما يزداد الوعي بالهوية في تجارب الاغتراب، فالفرد عندما يجبر على مغادرة موطنه، أو استبدال لغته الأم، أو الاندماج القسري في مجتمع مختلف، تنشأ لديه حالة من القلق الوجودي؛ ذلك أن "الإزاحة عن المكان الأصلي والارتماء في مكان ناء، وتبنّي لغة أخرى غير اللغة الأم للتعبير، وبناء تصورات مغايرة، تولد أزمة خاصة بالرؤية والهوية"[3]. فالاغتراب، سواء أكان مكانيًا أم ثقافيًا أم فكريًا، وجه من أوجه استلاب الهوية، يولد لدى الفرد شعورًا بالقلق والتوتر المستمر.

لقد أدت التفجيرات النووية، التي قامت بها فرنسا في الصحراء الكبرى نهاية الخمسينات الميلادية، إلى كارثة بيئية تسببت في الجدب والجفاف ونفوق الحيوانات، مما اضطر سكان الصحراء الكبرى للنزوح إلى الواحات القريبة منها في هجرات جماعية. وهو ما حدث للكوني في طفولته عندما وجد نفسه منفيًا عن موطنه، صحراء تينغرت بالحمادة الحمراء، إلى الواحات المجاورة، يتلقى علومًا في مدارسها تختلف عن علوم الصحراء، بلغة تختلف عن لغة أهل الصحراء؛ ليعيش اغترابًا مركبًا في الثقافة واللغة، ويعاني قلقًا في الهوية وإحساسًا أنه يعيش في غير مكانه: "لم أكن أدري في اليوم الذي وجدت نفسي أجلس على المقعد في الدراسة أن طورًا جديدًا من ملحمة الاغتراب كان في انتظاري. والأسوأ من حقيقته كاغتراب هو طبيعته المزدوجة: فهو اغتراب عن الوجود بوصفه اغترابًا عن اللغة الأم، والارتماء في دنيا مجهولٍ تمثّل في رطانة أجنبية، واغتراب عن ملكوت الروح بوصفه إيذانًا بالخروج من فردوس البراءة"[4]. وبهذا تحوّل الاغتراب بمستوياته المختلفة إلى محفّز أتاح للكوني اكتشاف ذاته واستشعار هويته عبر مواجهته للتناقضات.

ولا تُختزل الهوية في مكوّن اللغة أو المكان وحسب، بل تتجاوزها لتشمل ألوان الفنون والممارسات التي تُصاغ منها ذاكرة الجماعة، حيث أورد الكوني موقفًا آخر في طفولته لاغتراب الهوية تمثّل في

---

(1) الكوني، إبراهيم، عدوس السرى، ج١، ص١٦، ١٩.
(2) الكوني، إبراهيم، عدوس السرى، ج١، ص٢١-٢٢.
(3) إبراهيم، عبدالله، السرد والاعتراف والهوية، ط١ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠١١م) ص٢٥.
(4) الكوني، إبراهيم، عدوس السرى، ج١، ص٦٩.

اغتراب الهوية الفلكلورية، وتحديدًا هوية الغناء. ففي الصحراء كان الغناء يؤدّى بأصوات بشرية حميمية تتماهى مع البيئة الصحراوية وروحها، ولكنّه أُستبدل بتقنية تتناقض مع أصالة اللحون الصحراوية، حيث حلّت آلة (الغرامافون) في الواحات التي نزحوا إليها محله؛ وهو موقف وجد فيه الكوني تعديًا على هوية الغناء وهويته الصحراوية، مما دفعه إلى عصيان أمر أمه عندما طلبت منه في مجلسها مع جاراتها تشغيل الجهاز: "لقد انتظرتُ من محفل النسوة أن يسمعنني لحون الحنين الصحراوية كما كنّ يفعلن في مثل هذه المجالس. انتظرت أن يتحفنني بأناشيد الصلاة التي افتقدتها منذ اغترابي عن المعشوقة الأولى، المعشوقة الخالدة، المعشوقة التي لم أدر يومها أنها سوف تصير لي قدرًا إلى الأبد؛ ولكنهن خذلنني! خذلنني لأنهن أردن استبدال صوت الصلاة مقابل صوت الآلة الملفقة من معدن الدنس"[1]. وعليه، فإن التخلي عن الألحان الصحراوية في نظر الكوني بمثابة تخل عن جزء من هويته.

وكغيره من المواقف التي عايشها الكوني في طفولته، لم يسعفه وعيه القاصر ولا مدركاته العقلية من تفسير احتجاجه على الآلة، حيث تبين له لاحقًا أن عداءه للآلة الموسيقية كان يخفي وراءه معنى أعمق من معنى استلاب الهوية الفلكلورية، وهو استلاب الهوية الوجودية القائمة على مبدأ التفكير وعلى الموقف النقدي من الوجود: " كان على شخصي أن يغترب في أركان هذا العالم طويلًا جدًا كي يدرك يقينًا أن الاعتراض على غناء بالإنابة هو احتجاج وجودي [...] إذا أجزنا للاختراع أن يمارس التفكير بالإنابة فإن ذلك لن يعني سوى تسليم زمام أمرنا للآلة لكي تمارس تجربة الوجود بالنيابة عنا؛ لأن التفكير ليس هو البرهان على الوجود، ولكنه الوجود مجسدًا"[2]. وبالتالي، فإن معارضة الطفل للآلة تعكس يقظة مبكرة أن تسليم مهمة التعبير أو التفكير لوسيط بالإنابة تعني تجريد الإنسان من جوهر هويته ووجوده، فالتفكير ليس دليلًا على الوجود، وإنما هو الوجود كما عبّر عنه ديكارت في مقولته الشهيرة.

ثانيًا: القلق الوجودي:

برز القلق الوجودي لدى الكوني في مرحلة مبكرة من حياته، واتضح ذلك عبر وعيه بالزمن في دلالته المتعلقة بالموت؛ فالإحساس بوطأة الزمن دليل على الوعي بالهوية والوجود، فمن "شأن الوعي المتعقّل بالموت، وليس الانفعالي، أن يشجع على الانتباه للحاضر.. معرفة أن أيامنا معدودة تولّد إرادة المثابرة واستمثال اللحظة الراهنة"[3]. وبهذا، تصبح فكرة القلق من الموت دافعًا لتحويل الزمن إلى حافز لاختصار المسافات وتسريع التحصيل والإنجاز، بدلًا من أن تكون مصدرًا للخوف ونهاية يُخشى اقترابها.

لقد بدا الإحساس بالزمن الضائع واضحًا عند الكوني في مواقف متعددة، فهو في سباق دائم مع الزمن، وقد اتضح حرصه على الزمن في اختصار الأعوام الدراسية وعبورها بأقصى سرعة ممكنة، كتجربته مع تقليص دراسة العامين الدراسيين في عام واحد التي مر بها في ليبيا وموسكو. ذلك الوعي بالزمن المهدر لم يقتصر على تجربته الدراسية فحسب، بل امتد ليشكّل نمطًا حياتًا له: "الزمن الضائع هاجس رافقني مبكرًا؛ ربما بسبب نزوحي إلى الواحات متأخرًا، وبداية التحصيل بعد سن العاشرة [...]

---

(1) الكوني، إبراهيم، عدوس السرى، ج١، ص٥٩.
(2) الكوني، إبراهيم، عدوس السرى، ج١، ص٥٨، ٥٧.
(3) فانين، لورانس، لماذا نتفلسف، ص١٤١-١٤٢.

ولهذا السبب ظل الإحساس بفوات الأوان جلّادًا نفسيًا ما لبث يسلط على الرقبة سيف الإعدام. وكان علي أن أستنطق المجهول طويلًا كي أدرك في أحد الأيام أن هاجس الزمن الضائع ليس سوى الإحساس الوجودي بالموت"(1). ولولا ذلك الوعي بأهمية الزمن لما أصبح من أكثر المبدعين غزارة وسرعة في الإنتاج، فالموت عنده واقع حتميّ يترصد النفس دون إشعار مسبق، والزمن رصيد محدود يتوجّب استثماره وعدم إهداره.

ولا يكتمل الوعي بالوجود بمجرد الإحساس به، وإنما بمواجهة الذات وطرح الأسئلة عليها من قبيل: من أنا؟ وما غاية وجودي؟ وما مقدار مسؤوليتي تجاه الوجود؟ ذلك أن "معرفة الذات نتيجة استفهام، والإنسان الذي يريد الاستجابة لقدره يجب أن يستفهم من ذاته عن ذاته، أن يسأل ذاته من هو، ومن أين جاء، وإلى أين يذهب"(2)؛ فبالسؤال يتفاعل الإنسان مع الحياة، وسؤال الوجود أحد أبرز الأسئلة التي تبحث عن الهوية، حيث يتحول السؤال من هاجس نفسي إلى رغبة ملحّة في فهم الذات والعالم.

لقد وجد الكوني إجابة سؤاله الوجودي في تجربة التيه القاسية التي مر بها في طفولته، لأن ما فسّره تاليًا أن الصحراء عندما استدرجته في تلك الليلة، وقعت معه عهدًا ضمنيًا ينص على أن نجاته من ضياعها مشروط بمهمة روحية ينبغي الالتزام بها، حيث اشترطت عليه أن الخروج الآمن من متاهتها مرهون بنقل رسالتها، والكشف عن هويتها للعالم: "إنها أم الروح التي سكنتني منذ المهد، ثم كانتني كونًا يوم استدرجتني في رحلة التيه، لتكبّل عنقي بعهد سرّي كان لي شرف حمله كصليب خفي [...] كأنها لم تكن تيهًا، ولكنها كانت نبوءة، كانت وصية"(3).

ويأخذ القلق مداه الأقصى حينما يتحول جواب السؤال الوجودي إلى قضية وواجب يلزم تلبية ندائه، وقضية الكوني منذ تجربة التيه كانت إعادة الاعتبار للصحراء، والبوح بحقيقتها وهويتها للعالم، يقول: "لأن اغتراب كاهنة الأجيال هذه لم يكن غيابًا بالطبيعة وحسب، ولكنه غياب ثقافي أيضًا، أي أنه ضياع في الهوية، وضياع في التاريخ، وضياع في الوطن، وضياع لناموس الأمة"(4). فالصحراء حاضرة في كل أعماله الأدبية والفكرية، برموزها وتاريخها ونواميسها وأساطيرها وأجوائها وحيواناتها ونباتاتها وسكانها، وكل ما دوّنه الكوني في كتاباته كان محاولة للنطق بكلمة الصحراء، وتبنيًا لقضاياها، ودفاعًا عن أصالتها، واستعادة لهويتها المغتربة.

إن علاقة الإنسان بالمكان علاقة مشتركة تقوم على التفاعل والتبادل بينهما، فالصحراء لطالما كانت منطلق الرسالات السماوية والنبوءات، وأهل الصحراء لطالما كانوا يمتلكون خصوصية في الهوية تؤهلهم لحمل رسالاتها. ويستشهد الكوني على ذلك بالأنبياء والرسل عليهم السلام، ابتداء من إبراهيم ووصولًا إلى محمد، الذين اصطفتهم العناية الإلهية بالتبشير لما يحملونه من خصائص في هويتهم، ورغم ذلك حاولوا التنصل من التكليف لجهلهم بحقيقة تلك الخصوصية وبقدراتهم الكامنة خلفها، يقول: "يفرّ يونس من نينوى فزعًا من نبوّة هي وزر جسيم فيركب البحر، ولكن بطن الحوت كان له فخًا بمشيئة الرب. وها هو موسى يملي على ربه شروطًا مقابل قبول النبوّة بأن يجعل له أخاه هارون وزيرًا.

---

(1) الكوني، إبراهيم، عدوس السرى، ج١، ص٣٥٧.
(2) دافي، ماري، معرفة الذات، ترجمة: نسيم نصر، ط٣ (بيروت: منشورات عويدات، ١٩٨٣م) ص١٩.
(3) الكوني، إبراهيم، عدوس السرى، ج٣، ص٤٠٢، والكوني، إبراهيم، عدوس السرى، ج١، ص٩٥.
(4) الكوني، إبراهيم، عدوس السرى، ج٣، ص٣٩٥-٣٩٦.

وها هو النبي محمد يفرّ من وجه الملاك جبريل ليستجير بأحضان زوجته خديجة"[1]. فالكوني يرى أنه لم يوجد في العالم عبثًا، ولم يوجد في الواقع الصحراوي إلا لغاية، وما اصطفاء الصحراء له بالتبشير والنبوّة إلا لخصوصية يمتلكها في هويته، تعلمُها الصحراء ويجهلها وعيه.

من هذا المنطلق، يحاول الكوني إثبات أن الخصوصية المشتركة بينه والأنبياء تتمثّل في الهوية الصحراوية، بوصف الصحراء فضاء يمنح ساكنيه خصائص تؤهلهم لحمل الرسالات؛ فكما كانت العناية الإلهية تختار من تتوفر فيهم خصائص كالحكمة والزهد والقدرة على التحمل والتأمل، فإن الصحراء قد اصطفته بطريقة مشابهة ليكون حامل رسالتها للعالم، يقول: "لذا فإن جل السلالات التي تحيا العزلة في الصحاري هي أطياف مسكونة بنبوّة ما"[2].

ثالثًا: النداء والواجب

من المؤكد أن التبشير بأي رسالة يحتاج إلى تقنية، والخروج من المكان والارتحال أحد أبرز التقنيات الفاعلة لنشر الرسالات والتعبير عنها، لما يحمله الارتحال من مبادئ: كالسعي إلى الحقيقة، والتغيير، والبحث عن المجهول، وصقل الذات وإعادة اكتشافها؛ "فهو وسيلة عبور من المجهوليّة إلى المعلوميّة، وهو مغامرة شائقة يترقّى بها المرء في مدارج المعرفة، فتتلازم عناصر الارتحال بالبحث والاكتشاف لتصوغ تجربة مغايرة لتجارب الركود والسكون التي لا تعرف التغيير، ولا تدرك معنى التحوّل"[3]. فالخروج من محيط المكان المألوف يتيح للراحل فرصة إعادة تقييمه لذاته، والكشف عن إمكاناته عبر احتكاكه بالتحديات والأفكار المختلفة، قبل أن يكون مجرد تقنية لإيصال الرسالة للآخرين والتأثير فيهم.

ويفرق الكوني بين الارتحال بوصفه تلبية لنداء رسالة، والارتحال بوصفه عبورًا وتلبية لحاجة دنيوية، فعدوس السرى هوية مبدؤها في الرحيل قائم على الضياع والاغتراب في سبيل السعي إلى استحضار الحقيقة: "ففي صحرائي الكبرى لا يعد الارتحال في نطاق الأوطان عبورًا، لا يعد السفر في الحدود لاستطلاع الكلأ، أو لتفقد القطعان، أو لاستجلاب المؤن خروجًا، إنه استطلاع، إنه خروج لإنجاز غاية دنيوية، غاية فانية. أما الخروج وراء المجهول فيفترض ضياعًا، يفترض الاستجابة لنداء المجهول المترجم برطانة الحلم"[4]. وهو المبدأ نفسه الذي دأب عليه الأنبياء في هجراتهم؛ فهي ترتحل لأنها تحمل همًا وجوديًا، وواجبًا يفترض تأديته.

إن تجربة التيه في الصحراء لم تكن إلا تمهيدًا لضياع استمر مع الكوني طوال حياته، فأحداث حياته اللاحقة، وصراعاته التي خاضها، وتحولات شخصيته، ومكونات هويته، كلها تدور في فلك الخروج من المكان وتخضع لتأثيره. ففي تلك التجربة أعطت الصحراء الكوني تفويضًا بالهجرة والرحيل شريطة أن يبشر برسالتها وحقيقتها: "لأن الهجرة لا تكون هجرة حقيقية إن لم تكن خروجًا للبحث عن

---

(1) الكوني، إبراهيم، عدوس السرى: روح أمم في نزيف ذاكرة، ج٤، ط١ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠١٦م) ص٣٠.

(2) الكوني، إبراهيم، عدوس السرى: روح أمم في نزيف ذاكرة، ج٤، ط١ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠١٦م) ص٣١.

(3) إبراهيم، عبدالله، السرد والاعتراف والهوية، ص٢٢١.

(4) الكوني، إبراهيم، عدوس السرى، ج١، ص٢٧٥.

الحقيقة"[1]، وفي سبيل الوصول إلى الحقيقة والاهتداء إلى الواجب ينبغي الخروج من جذور المكان والتفتيش عن الهوية في الخارج، وهو مبدأ البحث والضياع الذي اعتاد الكوني على تكراره في سيرته الذاتية: ضيّع نفسك تجدها.

رابعًا: البحث عن الهوية

يزداد الوعي بالذات عبر مواجهة الآخر والتفاعل معه، فالآخر يتيح للذات التعمق في نظرتها لنفسها، ويحفزها على تلمس مواطن الالتقاء والاختلاف، وغالبًا ما يتعرف الإنسان على هويته عبر اصطدامه بالآخر؛ حيث تأتي "أهمية الآخر في الفلسفة السارترية الوجودية وفي علم النفس اللاكاني من جوهريته الأساسية في تكوين الذات وتحديد الهوية"[2]. فالانفتاح على الآخر لا يعني تنازل الذات عن هويتها، بل ثراء يتيح لها التعرف على معالمها، ويكشف لها ما قد يغيب عنها من أبعاد في حالة العزلة والانطواء.

لقد وجد الكوني في الآخر دافعًا لاكتشاف ذاته والتفتيش عن هويته، ففي الوقت الذي هجر فيه الصحراء، ونزل إلى الواحات ملتحقًا بمدارسها، كان لقاء الآخر المختلف عنه في الثقافة بمثابة صدمة أيقظت وعيه لهويته، ودفعته للتعمق في ذاته وإعادة النظر إليها: "جلستُ بين أقرانٍ يتعاطون اللسان المطلسم بدليل إجاباتهم عن الأسئلة، في حين لم ينجدني فضولي في فك عقدة لساني. جلست بينهم ذاهلًا محمومًا بالخجل لجهلٍ لا ذنب لي فيه، أيقظ في وجداني الطفولي عدم الانتماء إلى هذا العالم، وكان علي أن أفعل شيئًا جسيمًا (فعلًا بطوليًا) لاستعادة هويتي الضائعة والفوز بثقة العالم"[3]. ذلك الموقف جعل الكوني يلتفت إلى قضية مهمة لها علاقة وثيقة بمسألة الهوية وهي قضية اللغات، ولدورها المؤثر في تحقيق المعرفة وإعلاء شأن الهوية. فنقل كلمة الصحراء، والكشف عن هويتها وحقيقتها المغيّبة للعالم، لا يمكن أن يتحقق إلا بوسيط اللغة؛ لأن دور اللغة لا يقتصر على حد التواصل فحسب، بل يتجاوزه لمعان أخرى أكثر عمقًا: كالتعريف بالهوية، والتعرف عليها، والدفاع عنها.

ولذلك فإن البحث عن الهوية والسعي إلى نقل ثقافة الصحراء يتطلب إجادة أكثر من لغة بما فيها لغة المجتمع السائد، والبقاء ضمن نطاق اللغة الواحدة لن يفي بإثبات الهوية والوجود: "فاللغة الواحدة لا تكفي للبرهنة على وجود الوجود. لا تكفي للبرهنة على وجودنا قيد الوجود، فلا نملك إلا أن نستزيد"[4]. ولما كانت لغة الطوارق لغة مغتربة بوصفها لغة أقلية، فإنه من المتعذر التبشير برسالة الصحراء بلغة متواضعة الحضور والتأثير، ولعل ذلك ما دفعه إلى إجادة أكثر من لغة؛ فالتعدد اللغوي عنده ليس مجرد طموح لغوي، وإنما جزء من البحث عن الذات والهوية.

---

(1) الكوني، إبراهيم، عدوس السرى، ج٣، ص١٥٦.
(2) الرويلي، ميجان، والبازعي، سعد، دليل الناقد الأدبي، ط٥ (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٧م) ص٢١.
(3) الكوني، إبراهيم، عدوس السرى، ج١، ص٦٩.
(4) الكوني، إبراهيم، عدوس السرى، ج٤، ص٥٩-٦٠.

الخاتمة:

وبناءً على ما تقدّم عرضه، فإن البحث قد توصّل إلى عدد من النتائج، من أبرزها:

- شكّلت الطفولة البنية الأولى لوعي الكوني، وكانت المنبع الذي بدأت فيه تساؤلاته حول الذات والهوية.

- تبيّن أن مكان الطفولة، وتحديدًا الصحراء، لعب دورًا عميقًا في صياغة هوية الكوني، وإثارة دهشته، وتحفيزه للتأمل.

- كانت تجربة ضياع الكوني في الطفولة تحولًا روحيًا ووجوديًا، أفضت إلى ميلاد وعيه بذاته وهويته، وأسّست لهوية عدوس السرى الباحث عن المعنى.

- أشار البحث إلى أن وعي الطفل بالهوية في بداياته يكون تقليديًا وتلقائيًا، يعتمد على المحاكاة والامتثال للثقافة المحيطة دون وعي تأويلي أو نقدي.

- نزوح الكوني إلى الواحات، ودراسته بلغة غير مألوفة، واحتكاكه بثقافات مغايرة، أيقظت وعيه بخصوصية هويته الصحراوية.

- الهوية عند الكوني ليست حالة وجدانية فقط، بل تكليف وجودي، وواجب رسالي استدعاه منذ تجربة التيه في الطفولة.

- **الطفولة شكّلت نقطة الانطلاق في وعي الكوني بذاته**، وكانت المرحلة التي بدأت فيها تساؤلاته عن الهوية والوجود.

- **تجربة التيه في سن الخامسة مثلت لحظة مفصلية للكوني**، أسهمت في ولادة وعي جديد بهويته.

- **احتكاك الكوني المبكر بالآخر المختلف ساهم في بناء هوية ذاتية مستقلة.**

- **القلق الوجودي نشأ منذ الطفولة عبر الإحساس المبكر بالزمن والموت**، مما جعله يعيش طفولة متأملة تتجاوز عمرها الزمني.

المصادر والمراجع:

- الكوني، إبراهيم، عدوس السرى: روح أمم في نزيف ذاكرة، ج١، ط١ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠١٢م).

- الكوني، إبراهيم، عدوس السرى: روح أمم في نزيف ذاكرة، ج٣، ط١ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠١٤م).

- الكوني، إبراهيم، عدوس السرى: روح أمم في نزيف ذاكرة، ج٤، ط١ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠١٦م).

- رووكي، تيتز، في طفولتي: دراسة في السيرة الذاتية العربية، ترجمة: طلعت الشايب، ط١ (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢م).

- فوزي، منير، صورة الطفل في الرواية المصرية، ط١ (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٧م).

- فانين، لورانس، انظر وفكّر: من العين إلى الروح، ترجمة: محمد الزين، ط١ (وهران: ابن النديم للنشر والتوزيع، ٢٠٢٢م).

- فانين، لورانس، لماذا نتفلسف؟: سُبُل الحُريّة، ترجمة: محمد الزين، ط١ (وهران: ابن النديم للنشر والتوزيع، ٢٠٢م).

- البليهد، حمد، جماليات المكان في الرواية السعودية، ط١ (الدمام: دار الكفاح للنشر والتوزيع، ١٤٢٨ه).

- صالح، صلاح، سرديات الرواية العربية المعاصرة، ط١ (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣م).

- إبراهيم، عبدالله، السرد والاعتراف والهوية، ط١ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠١١م).

- دافي، ماري، معرفة الذات، ترجمة: نسيم نصر، ط٣ (بيروت: منشورات عويدات، ١٩٨٣م).

- الرويلي، ميجان، والبازعي، سعد، دليل الناقد الأدبي، ط٥ (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٧م).